

كامل كيلاني
قصص علمية
جبارة الغابة
دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلانى

قصص علميّة

جبّارة الغابة

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

رقم الإيداع		١٩٩٧/١٣٦٤٥
الترقيم الدولى	977-02-5518-I	ISBN

٧/٩٧/١٠٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الناشر دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج م ع

مقدمة

وَلَدِى رَشادُ :

لقد أعجبَك هٰذا اللَّوْنُ المُشْرِقُ من القَصَصِ العامىِّ الرائع السَّهلِ ، وأعجبنى أنى وُفِّقْتُ إلى إعجابِك وإرضائك ، وتحبيبِ العلمِ إلى نفسِك ، وتبديلِ زُهدِك فيه : حُبًّا له ، وشغفاً به .

وقد رأيتُ : كيف رحَّبْتَ بتلكَ القِصَص ، التى قَبَسْتُها لك فى الأجزاءِ السابقَةِ من هٰذه المجموعةِ المختارَةِ ، وسرَّنى أنك أقبلتَ على قراءتِها ودرسِها وتلخيصِها ، ولم تترُكْ منها شاردةً ولا واردةً إلا تعرَّفْتَها ، وأحطْتَ بِها علمًا ؛ فحمِدْتُ هٰـذه النتيجةَ السارَّةَ التى كنتُ أُقدِّرُها لهٰذه القِصَص الشائقَةِ .

ولقد كنتُ أَرَى نُفُورَكَ من تلك الكتبِ العلميَّةِ الجافةِ ، التى طالَما زَهِدْنا فى قراءتِها — حين كنا أطفالًا — فلا أَلُومُك فى هٰذا النُّفُورِ ، بل أُقِرُّك على رأيِك ، وألتمسُ لك وُجُوهَ المعاذيرِ ؛ فإنها لم تُكتَبْ — على الحقيقة —

لك ، ولم تُؤَلَّفْ ليقرأَها أمثالك ؛ فهي تَعرِضُ أمامَكَ جَمْهَرةً مُضْطَرِبةً مُهوَّشَةً من أَخلاطِ المعارفِ ، وأشتات العُلومِ ، وَتَزْحَمُ رأْسَكَ الغضَّ بها فى غَيْرِ تَشْوِيقٍ وَلا تَرْغيبٍ ؛ فتُبَغِّضُ إليك الثقافةَ ، وتُنَفِّرُكَ مِنَ المَعرِفَةِ.

أَمَّا الآنَ ، فقدْ تجلَّتْ لك الحقائقُ العِلْميَّةُ فى أجملِ صُورَةٍ بيانيَّةٍ ، وَأَبرعِ أُسلوبٍ قصَصِىٍّ ، ولبستْ ثَوْبًا خياليًّا أَخّاذًا ، يَمْلأُ نفسَكَ بهجةً وحُبورًا . فلا عجبَ إذا أقبلتَ على قراءتِها وفهمِها ، ورُحْتَ تتعجَّلُنى فى طلبِ الْمَزيدِ ، وتتنَجَّزُنى الوعدَ فى إلحاحٍ شديدٍ .

ولن أَمْطُلَ وعدى لك ؛ فقد أَخذتُ نفسى بتحقيقِ رجائك ، وتوَخِّى رغباتِك ، وتحبيبِ المعارفِ إليك ، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا

كامل كيلانى

١ – حَديثُ النَّسيمِ

مرَّ نَسيمُ الصباحِ عَلَى الأزهارِ البهيجةِ النَّاضرَةِ التى تزدانُ بها الأجَمَةُ ، وَهَمَسَ النسيمُ فى أثناء خَطرَتِهِ (فى خِلالِ مُرورِهِ) :

« يا لَهُ من نَبإٍ هائلٍ ! يا لَهُ من نَبإٍ هائلٍ ! »

فانزَعجتِ الزَّهَراتُ ، وَقالت مدهوشةً : « أىَّ نَبإٍ تحْمِلُ ، يا نسيمَ الصباحِ ؟ »

فَهَمَسَ النسيمُ البليلُ (الْمُحَمَّلُ بالنَّدَى ، الْمُبَلَّلُ بِهِ) :

« لَقدْ هَلكَتْ جَبَّارَةُ الْغابةِ ! لَقَدْ هلكَتْ جَبَّارهُ الغابةِ ! »

فقالتْ زَهْرةُ الأُقْحُوانِ ، وَهِى أعلَى أزهار الغَيْضة ارْتفاعًا (والغَيْضَة . مُجْتَمَعُ الشَّجَرِ) :

« أتعنِى: السِّنْدِيانةَ الْعَجُوزَ ؟ وَكيف هَلكَتْ هٰذهِ الجَبَّارَةُ ، وهِى مِثالُ القُوَّةِ والصَّلابةِ ؟ هٰذا لا يكونُ ؛ فإنَّ العَمالِقَةَ الْأَشِدَّاءَ لا يَمُوتونَ . وَما أحْسَبُكَ إلَّا واهِمًا مُخْطِئًا فى حُسْبانِكَ ، يا سَيِّدِى النسيمَ .

وكيف ترِيدُنا عَلَى أن نُصَدِّقَ هٰذا النَّبأَ ، وَقَدْ كانتْ – إلى أمْسِ –

شامِخَةً ، ذاهبَةً فى الفضاء ، كأَنَّها العِملاقُ العظيمُ ، أَوِ الماردُ الْجَبَّار الْهائِلُ ، كما حَدَّثَتْنِي صَديقتِي القُنْبَرَةُ ، التى كانتْ تغرِّدُ عَلى أَفْنانِها (تُغَنِّى عَلى أَغصانِها) فى اليَوْمِ السابِق ؟ »

فَجَمْجَمَ النَّسيمُ (تَكلَّمَ خافِتَ الصَّوْتِ) ، وَهُوَ يَبْتَعِدُ :

« لَقد ماتتْ جَبَّارَةُ الغابةِ ، ولَقِيَتْ حَتْفَها (مَوْتَها) ليلةَ أَمْسِ . نَعمْ هَلَكَتِ الْجَبَّارَةُ ، وقتلَتْها العاصِفةُ قتْلًا ! »

٢ — حُزْنُ الشَّراشيرِ

وكانَ شُرْشُورانِ يَمْرَحانِ عَلى حافَةِ الْأَجَمَةِ ، فَسَمِعا هَمْسَ النَّسيمِ وأَصغَيا إلى كُلِّ ما قالهُ ؛ فتملَّكهُما الدهَشُ وَالعَجَبُ .

فقالت « أُمُّ شَرْشَرَةَ » :

« أَتُصَدِّقُ هذا النَّبأَ الْهائلَ ! إِنَّنى لا أَسْتطيعُ تَصْديقَهُ ! »

فأَجابَها « أبو بَرَاقِشَ » :

« ما أَظُنُّهُ كاذِبًا فيما قالَ ؛ فَلْنَطِرْ إليها لِنَتَثَبَّتَ . »

فأَقَرَّتْهُ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » عَلى رَأْيِهِ .



ثمّ طار الشُّرْشُورانِ — منْ فَوْرِهما (تَوًّا) — وأَخْفقا (ضَرَبا بأجْنِحَتِهما) ، وسُرعان ما وَصلا إلى شَجرةِ البَلُّوطِ . وَثَمَّ (هُنالكَ) أيقَنا أنَّ النسيمَ لَمْ يَكُنْ مَخْدوعًا فيما عرَفهُ ، ولا كاذبًا فيما قرَّرهُ .

لَقَدْ رَأى الشُّرْشورانِ مَصْرَعَ جَبَّارةِ الغـابةِ ، وَحزَنَتْهُما تلكَ الْخاتِمةُ الْمُؤْلِمةُ ، وَهالَهُما (أخافَهُما) أن يَرَيا جِسمَها الكبيرَ مطرُوحًا عَلى الأعْشابِ ، وَقَدِ اقتَلَعتِ العاصفةُ جُذورَها مِنَ الأرْضِ ، وحطَّمتْ أغْصانَها بِلا رَحْمَةٍ .

ونظرَ الشُّرْشورانِ إلى شجرةِ الْبَلُّوطِ بعُيُونٍ دامعةٍ .

وقالت « أُمُّ شَرْشرَةَ » ، بصوتٍ خافِتٍ :

« ألا ترى هـٰذه النَّكبةَ الهائلةَ ؟ لا جَرَم (حَقًّا) أنَّها خَسارةٌ فادِحةٌ ، يا أبا براقِشَ . وسيحزَنُ عليهـا إخوتُنا الشَّراشِيرُ ، وغَيْرُها من الطُّيور . »

فأجابها « أبو براقِشَ » ، وقد اشتدَّ به الأسَى والحزنُ :

« صدقتِ — يا أُمَّ شَرْشَرَةَ — فهى نَكْبَةٌ جسيمةٌ ، وخَسـارةٌ



لا تُعَوَّضُ . لقد انقضى اليومَ عهدٌ (انتهى زمنٌ) سعيدٌ ، طالما نَعِمْنا بِهِ بين أغصانِ هٰذه الجبَّارةِ العجوزِ . ولن نَظْفرَ – بعد الآنَ – بما نعِمْنا به فى ظِلالها الوارفةِ المبسوطَةِ من المرَحِ والزَّقْزَقَةِ ، وتمثيل أدوار الِاستِخْفاءِ ، وما إلى ذٰلكِ من الألعاب البهيجةِ .

وما أشدَّ حُزنَنا لِمَصْرعكِ ، وما أشدَّ أَلَمَنا لوَداعِكِ ، أيتها الشجرةُ العزيزةُ علينا ! فلقد طالَما خَفَقْنا (طِرْنا) وأَوَيْنا إليكِ (اتَّخذْناكِ لنا مَنْزِلًا) ؛ فآويتِنا ، كما آوَيْتِ غيرَنا من كِرام الطَّير ، وَأَنقذْتِ أَرواحَنا وَأَرْواحَهُمْ من الهلاكِ . وكم خَبَأَتْ أَغْصانُكِ الكبيرةُ من طُيورٍ كانَتْ تلوذُ (تَلْجَأُ وتَحْتَمِي) بك ، كلما رأَت « أَبا الأَشْعَبِ » : ذٰلكِ البازِيَ الشَّرِسَ ، وهو يتلمَّسُها (يَتَطَلَّبُها مرَّة بعد أُخرى) جاهدًا فى بَحْثِه عنْها ؛ فلا يَظْفَرُ منها بِطائلٍ (لا يَرْجِعُ بفائدةٍ) . وكم وقَيْتِها غائِلَةَ العِقْبانِ ! ولستُ أَنْسَى تِلْكِ الأُسْرَةَ من العِقْبانِ الفتّاكةِ (المُفْتَرِسَةِ) ، حينَ قدمَ الغَرَنُ : رَبُّ تلكِ الأسرةِ . ولَقَد سَمِعْتُهُ يُحادِثُ زَوجَهُ : « القَنْواءَ » وولدَهُ « النّاهِضَ » ، وقد تَمَلَّكه الغَضَبُ ، لِأَنَّهُ لم يعثُرْ عَلَى طائرٍ واحِدٍ يأكلهُ . »

فقالت « أُمُّ شرشَرَةَ » : « وهل نسِيتَ أُسرةَ النُّسورِ الّتى وفدَتْ علينا — مُنذ أَسابيعَ — وقد ضاعَ تعبُ « الضَّريكِ » : رَبٍّ تلكَ الأُسرةِ ، وزوجِه « الْعِتْرَةِ » وولدِها « الْهَيْثَمِ » ، بلا طائلٍ (بِغَيْرِ فائدةٍ) ؛ لأنَّ الطُّيورَ قد اخْتبَأَتْ بين أَغْصانِ هٰذه الجبّارة ، فلم تَقَعْ عليها عَيْنُ كائنٍ كان ؟ »

فقال « أَبُو بَراقِشَ » : « كَلَّا ، لم أَنْسَ شيئًا من هٰـذه الذِّكريات . وكم لهٰذه الشَّجرةِ العزيزة علينا من مَآثِرَ (مَكْرُماتٍ) وأيادٍ لا تُحْصَى (نِعَمٍ لا تُعَدُّ) ! »

فقالت « أُمُّ شَرْشَرَةَ » : « لقد كنت أَحْسَبُ هٰذه الجبَّارةَ لا تَمُوتُ ! »

فقال « أَبُو بَراقِشَ » : لَمْ يَكُنْ يدورُ بِخَلَدِى (يَمُرُّ ببالى) قطُّ أَنَّ هٰذه الجبّارةَ تَهْلِكُ (تَمُوتُ) ، لأَنَّها مِثالُ القُوَّة والصَّلابة . وَلا شَكَّ أَنَّ مَصْرَعَها (مَقْتَلَها) سَيَحْزُنُ أَصدقاءَنا ، حين يَعْلَمُونَ نبأَهُ الْهائِلَ (خَبَرَهُ الْمُحْزِنَ) . والآن — وقد انقَضى هٰـذا العَهْدُ السَّعيدُ ، وذَهَبَتْ تِلْكِ الأَيَّامُ الهنِيئَةُ إلى غير رجعةٍ — أَجِدُنِى مُتَأَلِّمًا حَزِينًا ، وأَنا أَسْأَلُ نفسى : تُرَى كيفَ تعيشُ السَّناجِيبُ بعد هٰذا اليومِ ؟ »

لعلَّكَ رأيتَ السِّنجابَ — أيُّها القارئُ الصغير — فى حديقةِ الحيوان ، ولعلَّكَ لا تزالُ تذكرُ ذٰلكَ الحيوانَ الطَّويلَ الذَّنَب ، الحسَنَ الشَّعر ، الَّذِى يُشَبَّهُ بِلَوْنِهِ ، فيقال : اللَّوْن السِّنْجابِىُّ !

واستَأنَفَ «أَبو براقِشَ» قائلًا : «تُرَى كَيفَ تظفَرُ هٰذه السناجيبُ بطعامِها فى فصل الشِّتاء ، وَقد حُرِمَتِ الْقَسْطَلَ — ثَمَرَ هٰذه الشَّجرةِ النَّافعةِ — الَّذِى هو أشهَى ثِمارٍ فى الْأَجَمَةِ ؟ »

فقالَت « أُمُّ شَرْشرَةَ » ، وهِىَ تَقفِزُ حول الشَّجَرةِ الْهالِكةِ : « خبِّرْنى — يا أَبا بَراقِشَ — أتُراهُمْ يَتركونَ هٰذه الجبَّارةَ الصريعَ ، طُول فصل الشِّتاء ، فى هٰذا المَكانِ ؟ »

فأجابها «أبُو بَراقِشَ» : «كَلَّا يا عزيزتى ؛ فإنَّ رِجالَ القَرْيَةِ سَيَحْضُرُونَ للاِحْتطابِ (اقْتِطاعِ الْحَطَبِ) ، بعد قليلٍ من الزَّمن ، وَلَنْ يَتْرُكُوها حَيْثُ هِىَ ؛ لأنَّ خَشَبَ البَلُّوطِ عظيمُ الفائدة ، جليلُ النَّفعِ للنَّاس . وقد حدثَتْنِى أُخْتِى « أُمُّ بِرْقِشَ » أن النَّاسَ يَبْنُون من الْبَلُّوط بُيُوتًا كبيرةً ، تَمْشِى عَلَى سَطْحِ الماء ، يُسَمُّونَها : سُفُنًا وَبَواخِرَ وَمَراكِبَ . »

فصاحت «أم شَرْشَرَة» بصوتٍ حَزِين :

« يا لَكِ من جبَّارةٍ تاعِسةٍ ، أيتها الشجرةُ العجوزُ . ولَسْتُ أشُكُّ في أَنَّ لكِ تاريخًا حافلًا . فَمَنْ لَنا بأنْ نَتَعَرَّفَ قِصَّتَكِ ؟ »

فقال «أبو بَرَاقِشَ» : « صَدَقْتِ – يا زَوْجِيَ العزيزةَ – فإنِّي شديدُ الشَّوْقِ إلى تَعرُّفِ قِصَّةِ هٰذه الجَبَّارَةِ الصريعِ . »

فقالت « أمُّ شَرْشَرَةَ » : « فَلْنَذْهَبْ إلَى « أبي الْخُطَّافِ » ، أعْنِي : ذٰلكَ الْحِدَأَةَ الذكيَّ ، لِنتَعَرَّفَ منهُ قِصَّةَ الْجَبَّارةِ الْهالِكَةِ . »

فقال لهـا « أبو براقش » : « كلَّا يا عزيزتي ، بل نذهبُ إلى « ابنِ دَأْيةَ » : ذٰلِكِ العَقْعَقِ الْهَرِمِ (الغُرابِ الْمُسِنِّ) ؛ ليَقُصَّ علينا أنباءَ الشجرَةِ . فهو – وَحْدَهُ – خَبيرٌ بتاريخها كُلِّهِ . »

فقالت « أمُّ شَرْشَرَةَ » : « أتَظنُّه أعْلَمَ مِنْ « أبي الْخُطَّاف » بتاريخها ؟ »

فقال « أبو بَرَاقِشَ » : « ليس في هٰذا شَكٌّ ، فهو يَعْرِف كلَّ شَيْءٍ . »

فقالت « أمُّ شَرْشَرَةَ » : « هلُمَّ (تَعالَ) ، فَلْنَذْهَبْ إليه جميعًا . »

٣ — « ابنُ دَأْيةَ »

كان « ابن دَأْيَةَ » عَقْعقًا ذكيًا ، طاعِنًا فى السِّنِّ . وكان بعض الناسِ يُطْلِقُ عليــهِ اسْمَ « الغُرابِ النُّوحِيِّ » — لكثرةِ نُواحِهِ (بكائهِ) — كما كان الآخرونَ يُطْلِقونَ عليهِ اسْمَ : العقعَقِ ؛ لأنه يُكْثِرُ من النُّطْقِ بكلمَةِ : « عَقْ - عَقْ » .

وكان « ابْنُ دَأْيَةَ » هٰـذا شَيْخًا مُسِنًّا — كما قُلنا — فأَصبَحَ — لِضَعْفِهِ — لا يكادُ يَبْرَحُ وَكْرَهُ (قلَّما يُفارِقُ عُشَّهُ) الذى اختارهُ لنفسِهِ ، فى رَأسِ شَجَرَةٍ باسِقةٍ (عاليةٍ) مِن أشْجارِ الْحُورِ . وقدْ ضَعُفَ البصَرُ « ابْنِ دَأْيَةَ » مِن الـكِبَرِ ، وانْتابَتْهُ أعْراضُ الشيْخُوخة ؛ فأَصْبحَ لا يكادُ يُبصِرُ شيئًا ، وتساقَطَ رِيشُهُ فلم يَبْقَ منهُ إلا القليلُ .

ولَمَّا وَصلَ الشُّرْشورانِ إلى وَكْرِ العَقْعَقِ ، سَلَّما عليه ؛ فرَدَّ عليهما التحيَّةَ ، بعد أَنْ عَرَفَ صَوْتَيْهِما . ثُمَّ قال لهُما بصوْتِهِ الأَبَحِّ (الغَليظ الذى فيهِ بُحَّةٌ) : « أهْلًا وَسَهلًا بِكُما ، أَيُّها العَزيزانِ الصغيرانِ ! »

فقالا لَهُ : « سُعِدَ يَوْمُكَ ، يا عَمَّنا العزيزَ . »



وإنما أَطْلَقا عليهِ اسْمَ : العَمِّ — ولَمْ يَكُنْ لَهُما عَمًّا — لأن طُيورَ البَلَدِ كلَّها تَعَوَّدَتْ أنْ تُنادِيَهُ بهذا اللَّقبِ .

ثُمَّ قال الشُّرْشورانِ : « كَيْفَ صِحَّتُكَ — فى هذا الصَّباحِ — يا عَمَّنا « ابْنَ دَأْيَةَ » ؟ »

فقال لهما : « لَيْسَتْ على ما يُرامُ (لَيْسَتْ كما أُحِبُّ وأَشْتَهى) يا عَزيزَىَّ . فقدْ رابَنى بَصَرِى (لَقِيتُ بهِ ما أَكْرَهُ) ؛ فَلا أَكادُ أُبْصِرُ شَيْئًا . فَخَبِّرانى : ماذا عِندكما مِن الأنباء الْجَديدةِ ؟ »

فقالا لَهُ : « ألا تَعْرِفُ — يا عَمَّنا — أَنَّ العاصِفَةَ قد اقْتَلَعتْ شجرةَ البَلُّوطِ العجوزَ ، التى نُطْلِقُ عليها اسْمَ « جَبَّارَةِ الغابَةِ » ؟ »

فَذُعِرَ « المقْعَق » (خافَ) ، ووَقَفَ عَلى إحْدى رِجْلَيْهِ ، وقال مَذهوشًا : « أىَّ نَبإٍ تَحْمِلان ؟ وَكَيْفَ تقولان ؟ أَجبّارةَ الغابَةِ تَعْنِيانِ ؟ كَيْفَ هَلَكتْ ؟ لعلَّكما تُريدان أن تَعْبَثا (تَهْزَءا) بِى ، وَتَضْحَكا مِنِّى ! »

فقال الشُّرْشورانِ : « كَلّا ، كَلّا — يا أَبا عَقْعَقٍ — ليس مُزاحًا ما تقول . إنها الحقيقةُ الرّاهنةُ (الحاضرَةُ الواقِعَةُ) الَّتى لا شَكَّ

فيها ، وقد جِئْنا نسألُكَ : هَلْ تعرِفُ قصَّةَ هٰذهِ الشجرةِ وَتاريخَها ؟ »

فقال « العَقْعَق » مُتألِّمًا مَحْزونًا : « قِصَّتَها وتاريخَها ؟ كيفَ أَجْهَلُهُما ؟ ومَن أعْرَفُ بِهما مِنِّى وأخْبَرُ ؟ أَجَلْ (نَعَمْ) أعْرِفُهما على التَّحقيقِ . وَقدْ حدَّثتني أُمِّى بِهما — رَحمةُ الله عليها — أكثرَ من مرَّةٍ ... مِسكينَةٌ شجرةُ البلُّوط ! أَماتَتْ ؟ ها نَحْنُ أُولاءِ قدْ فَقَدْنا صَديقًا كريمًا ، عَزيزًا علينا أنْ نَفْقِدَهُ ! »

٤ — نَشْأَةُ الْجَبَّارَةِ

وجَثَمَ (قَعَدَ) الشُّرْشورانِ على حافَةِ العُشِّ ، ووَقف العَقْعَق ، ثمَّ قال مُتحسِّرًا مُتفجِّعًا :

« إِلَيْكما (خُذا) — يا عَزيزَىَّ — قِصَّةَ هٰذهِ الْجَبَّارَةِ الْعجوزِ : لَقَدْ حَدثَ ، مُنْذُ زَمنٍ بَعيدٍ : بعيدٍ جِدًّا ، قبلَ أن تُولَدَ أشجارُ هٰذا البَلدِ كلِّه — الَّتى تَرَيانِها أمامَكُما — أنْ سَقطَتْ ثَمرَةٌ صغيرةٌ منْ شَجرةٍ كبيرةٍ هِىَ شَجرَةُ البَلُّوطِ ، التى كانَتْ تَعيشُ فى ذٰلِكما الزَّمَنِ الغابرِ . وكانَ فى تِلْكُما الثَّمرَةِ طِفلٌ صغيرٌ ، راقِدٌ فى مَهْدِهِ ، وَهوَ — فى مُسْتَهلِّ حَياتِهِ —

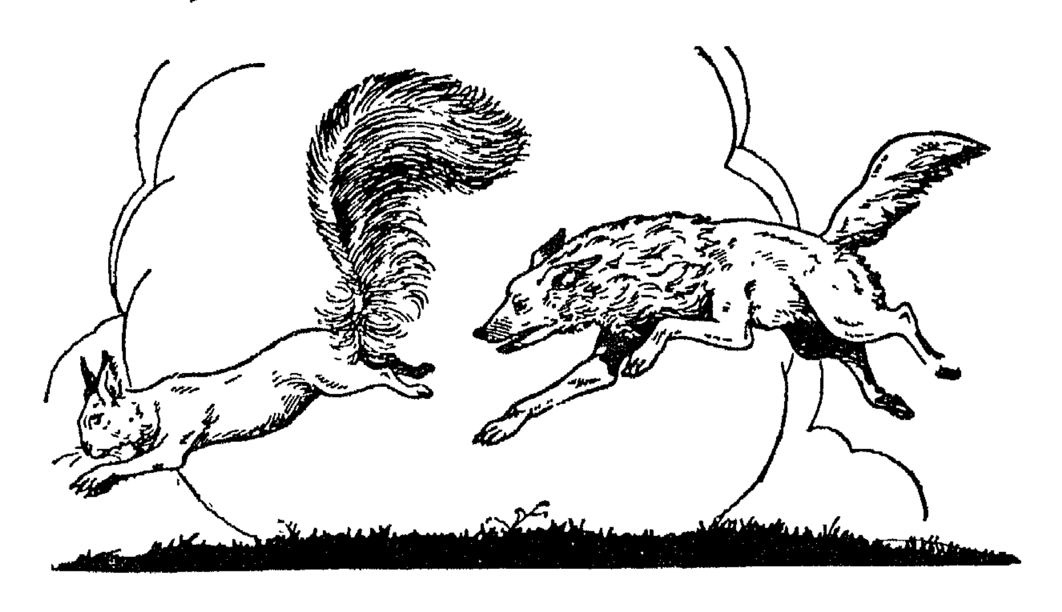
ضَعيفٌ لا قُوَّةَ لَهُ . وَلَم يَكُنْ ذلكما الْجَنينُ إلَّا بَذْرَةً صغيرةً منْ نوْعِ الْبُذورِ الَّتى ترَبّانها فى ثِمارِ الْبَلُّوطِ . ولَم يَكُنْ للْجَنينِ أُمْنيَّةٌ أشْهَى (أَحَبُّ) إلى نفسِهِ منْ أنْ يعيشَ بِالْقُرْبِ من أُمِّه العزيزَةِ ، حَيْثُ يَحْيا فى أمْنٍ وَدَعَةٍ (راحَةٍ وطُمَأْنينَةٍ) ، تَحْتَ أَغْصانها الكَثيفةِ . ولٰكِنْ يُريدُ الْمَخْلوقُ أَمْرًا ، ويُريدُ اللهُ — سُبْحانَهُ — أَمرًا آخرَ . وَلا مَرَدَّ لِمَشيئةِ الْخالقِ الْمُدَبِّرِ القَوِىِّ العزيز . سَقطَتِ الثمرَةُ على الأرْضِ — كما حَدَّثْتُكما — فَهَلْ تَعْلمانِ ماذا حدَثَ ؟

لَقَدْ آلَمَتْها السَّقْطَةُ ، وَأَذْهَلها (أَنْساها) الأَلَمُ ، حتى كادَتْ تَفْقِد رُشْدَها . وَإنها لَتُعانى (تُقاسِى) أَلَمَ السُّقُوطِ ، إذْ بَصُرَ بها سِنْجابٌ ، فانقَضَّ عليها لِيأْكلَها . فانْزَعَجَ الْبَلُّوطِىُّ الْجَنينُ ، واشْتَدَّ خوْفُهُ ، وأَيْقنَ أنهُ — لا مَحالةَ — هالكٌ . ولٰكِنَّ الله — سُبحانهُ — كتبَ لهُ السَّلامةَ منَ الْهلاكِ ، وَقيَّضَ (هيَّأَ) لهُ الفرَجَ ، وَبدَّلَ يَأْسَهُ رجاءً .

أَتَعْرِفانِ كيفَ نَجا الجَنينُ ؟

لَقَدْ سمِعَ عُواءً عالياً : « عَوْ ! عَوْ ! » ، فأَىَّ صوْتٍ سمِعَ ؟ إنهُ

عُواءُ الْكَلْبِ . فلقدْ نَشِطَ « ابنُ وازِعٍ » — وَهُوَ كَلْبٌ كان يعيشُ قَريباً مِنْ هٰذِهِ الْمِنْطَقَةِ — فراحَ يَجْري مُسرعاً ، وَهُوَ يَعْوِي خَلْفَ السِّنْجابِ ؛ لِيلْحَقَ بِهِ وَيفترِسَهُ . فارْتعدَتْ فَرائصُ السِّنجابِ (الفرائصُ



جَمْعُ : فريصةٍ ، وَهِي لَحْمةٌ — بين الْجَنْبِ والكَتِفِ — تهتزُّ عندَ ما يكونُ الْخَوْفُ) .

وَسُرْعانَ ما أَلْقَى السِّنجابُ ثَمَرَةَ البلُّوطِ الصغيرةَ ، وَلجَأَ إلى الفِرار حتَّى لا يفتِكَ بِهِ « ابْنُ وازِعٍ » (لِكَيْ لا يفْتَرِسَهُ الْكَلْبُ) .

٥ – مَوْطِنُ الشَّحارِيرِ

وَلَبِثَ البَلُّوطِيُّ الجَنِينُ – مُنْذُ ذٰلِكما الحِينِ – باقِياً عِنْدَ حافَةِ دَوْحَةٍ كبيرةٍ ، هى شَجرةٌ عظيمةٌ متَّسِعَةٌ ، عَلَى مقْرَبةٍ منْ سِياجٍ كبيرٍ منْ أشجارِ البُنْدُقِ . وَظلَّ فى مَهْدِهِ راقِدًا مُسْتَسلِماً لنومٍ عميقٍ – طَوَالَ الشِّتاءِ – تَحْتَ الحَشائشِ اليابِسَةِ التى يُغَطِّيها الجليدُ فى ذٰلِكما الفَصْلِ .

وكانَتِ الشَّحارِيرُ تَغْشَى هٰذا المَكان ، وتَخْتَلِفُ إليهِ ، وَتُؤْثِرُهُ (تَخْتارُهُ) عَلَى غيره – من أنحاءِ الأجَمَةِ – وَتَلْتَقِي عندهُ ، لِتَتَناقَلَ أسْمارَها (أحاديثَها الجميلةَ) ؛ فأَطْلَقَ عليهِ الناسُ اسمَ « أجَمَةِ الشَّحارِيرِ ».

٦ – يَقَظَةُ الطِّفْلِ

وَلمَّا جاءَ الرَّبِيعُ التَّالى ، اسْتَيْقَظَتْ بَذْرَةُ البلُّوط من سُباتِها (من نَوْمِها العميق) . فأَحسَّت جُوعاً شَدِيدًا ، واشْتَهَتْ نَفْسُها الطَّعامَ . فلم يُلَبِّ طَلَبَها أحدٌ . . . وَمَنْ لها بِأُمِّها الَّتى تُعْنَى (تَهْتَمُّ) بها ، وَتُلَبِّي رَغَباتِها ؟

لقد نَشَأَ هٰذا الطِّفلُ النَّباتِيُّ — كما حَدَّثْتُكما — بعيداً عن أُمِّهِ. وقد شَعَر بِوَحْدَتِهِ وَضَعفه؛ فَحزِنَ لِذٰلكما، واشْتَدَّ أَلَمُهُ. وَلَو استَطاعَ الْبُكاءَ لَبَكَى، كما يَبْكي الطِّفْل الحيوانيُّ. ولٰكنّهُ ذَكَرَ — بَغْتَةً — أَنَّ أُمَّهُ وَضَعَتْ فى مَهْدِهِ، قبل أن يُفارِقَها، وِسادَتَيْنِ (مِخَدَّتَيْنِ) صغيرتين مَمْلُوءَتَيْنِ بطعامهِ، وهو أَشْبَهُ شيءٍ بالدَّقيقِ. وقد تحَوَّلَ هٰذا الطَّعامُ — تَحْتَ الأرْض الرَّطْبَةِ — عَجِينَةً. فلمَّا طَعِمَها (ذاقَها) الطِّفل الْبَلُّوطِيُّ، استساغَها (استَطْعَمَها)، وَهَشَّ لها (ارْتاحَ وابْتَهَجَ). ثمَّ أَقبل عَلَى الطَّعام — فى شَرَهٍ عَجِيبٍ — حتَّى نَما جسمهُ، وَكَبِرَ جِرْمُهُ (حَجْمُهُ)؛ فَضاقَ به مَهْدُهُ. وشَعر الطِّفلُ بِضِيق هٰذا السَّريرِ؛ فَتَسَلَّلَ من بين هاتينِ الْوِسادَتَيْنِ، بعد أن أَكلَ ما تَحْوِيانهِ — من الْغِذاءِ — ولم يُبقِ مِنْهُ شيئاً يُذْكَرُ.

ولَمَّا وصل إلى عالَمِ الأرض، تَنَفَّسَ الصُّعَداء (تَنَفَّسَ طويلًا)، وابْتَهَجَ وشَعَر بفرَحٍ لا مَثِيلَ لهُ.

ثم تَحَوَّلَ — بعد قليلٍ — إلى ماذا؟ أَلا تَعْرِفانِ؟ تحوَّل إلى جَذْرٍ (أَصْلٍ) صغيرٍ، كما تتحوَّلُ بُذورُ النَّباتِ كلُّها. وشَقَّ لنفسهِ

طَرِيقاً مُسْتَقِيمَةً عَمُودِيَّةً فى جَوْفِ الأرض !

وما زال الطفل الصَّغيرُ يَرْتوى بالماءِ ، ويَتَغَذَّى بعصير الأرض — وقد اسْتَغْنَى عن الْعَجِينةِ الأُولى الّتى حدَّثتُكما عنها — ثم لم يَلْبَثْ أن أصْبَحَ غُلاماً . ولٰكنَّ الضَّجَرَ لازَمَهُ ، لِوَحْدَتِهِ ووَحشتِهِ . وَما أَجْدرَهُ بذٰلِكما ؛ فإنَّ العُزْلةَ تُسْئِمُ وتُضجِرُ . فَلا تَعْجَبا إذا أَخْبَرْتُكما أَنَّهُ كان يَتنَهَّدُ ويتحسَّرُ — طولَ النَّهار — وهو يقولُ لنفسهِ :

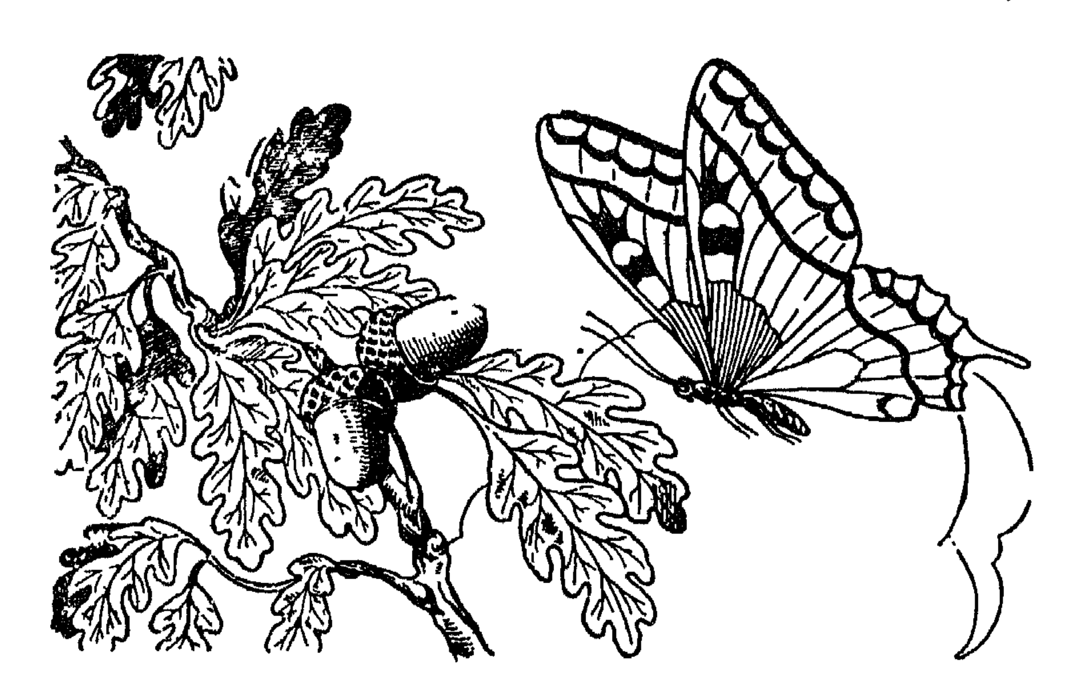
« آهٍ ! مَن لى بِأَنْ أَخْرُجَ من هٰذا السِّجن الضَّيِّقِ ، إلى ظاهرِ الأرض ، لِأَرى جَمالَ الدُّنيا ! ولعلِّى أَظْفَرُ — إذا تَمَّ لى هٰذَا — بأصدقاءَ خُلصاءَ يُبادلُوننى الْحُبَّ والْوَلاءَ . »

٧ — فى عالَم الضَّوْءِ

وَكانَ الطفلُ البَلُّوطِىُّ صَبوراً شُجاعاً : شَأْنُ أَطفالِ البلُّوطِ جميعاً . فظلَّ صاحِبُنا يدْفعُ رَأْسهُ — بكلِّ ما أُوتِيَهُ من قُوَّةٍ — لِيرْفعَ سَقْفَ هٰذا السِّجْنِ ، حَتَّى أَدْرَكَ أُمْنِيَّتَهُ ، وَظفرَ بِطِلْبَتِهِ (فازَ بمَطْلَبِهِ) .

وَثَمَّةَ أَصْبحَ فى عالَم الضَّوْءِ — بعدَ أنْ طالَ احْتِباسُهُ فى عالَم الظَّلامِ —

فابتَهج لهٰذا ، واشْتَدَّ فَرَحُهُ ، وَتملَّكهُ الزَّهْوُ (اسْتولَى عَلَى نَفْسهِ الإعجابُ) ؛ فظلَّ يهتزُّ — يَمْنَةً وَيَسْرَةً — وَهُوَ فَرْحانُ بساقهِ الْجَميل ، ووَرَقَتَيْهِ الخضراوَيْنِ . وَكانَ الطفلُ البلُّوطيُّ جَديرًا بهٰذا الزَّهْوِ : فقدْ أُعجِبَ بهِ كلُّ مَنْ رآه .



وَأَقبلَتْ عليهِ فَراشةٌ جَميلةٌ ، تُحَيِّيه وتَطيرُ حوْلَهُ فرِحةً مَسرورةً ، وابتَسَمتْ لهُ شقائِقُ النُّعمانِ البيضاء ، وَحيَّتْهُ تحيَّةَ الإعْجابِ .

وَجاءتْ جَرادَةٌ تُرَفْرِفُ عليه بِجَناحِها ، وَتُرحِّبُ بِمَقْدَمِه . ولمْ

يُنَغِّصْ عليه صَفْوَهُ إلَّا دُوَيبَّةُ الْحَلزونِ ، تِلْكُما الدُّوَيبَّةُ (الدَّابَّة الصغيرةُ) البغيضةُ إلى نفسِه ؛ لِأَنها كانَتْ — لِسُوء أَدَبِها — تَمَسُّهُ بِقَرْنَيْها ؛ فَيُؤْلِمُهُ مَسُّها ، وَيَكْرُبُه (يَسُوءهُ) لَمسُها .

فإذا أَقبَلَ الْمَساءُ ، جاءَتْ دُودةٌ زاحِفَةٌ منْ خِلالِ الْحَشائشِ ، حتى إذا اقتَرَبتْ منَ الغُلامِ البَلُّوطيِّ ، فرِحَتْ برُؤْيتِهِ ، وَقالتْ فى نفسِها مُبتهجَةً : « ما أَلَذَّهُ عَشاءً ، وَما أشهاهُ طَعامًا ! »

ثمَّ تُسْرِعُ الدُّودَةُ إلى نَباتِ البَلُّوطِ ، وَقدْ فرِحَتْ باهْتدائِها إلى هٰذا العَشاءِ الفاخِرِ ، وَتَصْعدُ إلى ساقِهِ مُتَسَلِّقَةً فى خِفَّةٍ وَرَشاقةٍ . وَلا تَزالُ تَقرِضُ أَطْرافَ أَوْراقِه وَتَقْضَمُها (تأْكلُها بأَطرافِ أَسْنانِها) ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ منَ الأَلم ، وَيَذكُرُ أَنَّ أُمَّهُ كانتْ تُحَدِّثُه — وَهو عَلَى غُصْنِها — أنَّ النَّباتَ مُحْتاجٌ إلى الأوْراقِ ، لِيَتَنَفَّسَ منها . وثَمَّ يَشْتَدُّ بِهِ الأَلَمُ ، وَيُبَرِّحُ بِهِ (يُؤْذِيهِ) الْحُزْنُ ؛ حتى لَيَوَدُّ لوْ أُتِيحَ (لَوْ تَهَيَّأَ) له أنْ يَعودَ إلى جَوْفِ الأَرْضِ ثانيةً ، فلا يُعَرِّضَ نفسَهُ لِمِثْلِ هٰذه الأذِيَّةِ . وَلا تَزالُ الدُّودَةُ دائبةً على قَرضِ الوَرقةِ الْخَضْراءِ الْجَميلةِ ، حتَّى تَأْتِيَ عَليها (تأْكلَها كلَّها)

٨ — حارِسُ النَّباتِ

ثُمَّ يَسْمعُ الغلامُ البَلُّوطىُّ خَفْقَ أجْنِحَةٍ تقْتَرِبُ منهُ فَجْأَةً ، ثُمَّ تَضْرِبُ رَأْسَهُ ضرْبةً قوِيَّةً ؛ فَتُذْهِلُهُ (تُنْسِيهِ)، وَتُرَنِّحُهُ (تُضْعِفُه) . وَلا يتعرَّفُ جَلِيَّةَ الأمْرِ ، حتى يُبْصِرَ طائرًا يَطِيرُ ، وفى مِنقارِهِ الدُّودَةُ الباغِيَةُ (الظَّالِمةُ) الَّتى اعْتَدَتْ على أوْراقِه . فيَشْكُرُ لهُ صاحِبُنا الغلامُ البلُّوطىُّ هٰذهِ اليَدَ (الْحَسنَةَ وَالفَضْلَ) ، وَلا يَنْسَى لهُ الجميلَ . وَلا يزالُ الصغيرُ البلُّوطىُّ يُحَيِّيهِ وَيَشْكُرُ لهُ صَنيعَهُ (معْرُوفَهُ) ، وَهُوَ يقولُ :

لقد نَجَوْتُ مِنَ الهلاكِ بِأُعْجُوبةٍ خارِقَةٍ (غيرِ عادِيَّةٍ) . فيالَيْتَ شِعْرِى (لَيْتَنِى أعْلَمُ) كيف يكونُ مَصيرِى لَوْ فَقَدْتُ هٰذا الطَّائرَ الحارِسَ الكريمَ ، الَّذِى يَحْمِى أَوْراقى مِنَ التَّلَفِ ؟ »

٩ — أسرة البلُّوط

كانَ « ابْنُ دَأْيَةَ » يَقُصُّ هٰذا التَّاريخَ العَجيبَ الحافلَ (المَمْلو بالحوادِثِ) ، عَلَى « أَبِى بَراقِشَ » وَ « أُمِّ شَرْشَرَةَ » ، وَهُما شَدِ

الإعجابِ بما يَسْمعانِ . ولَمْ تَفُتْهُما كَلِمَةٌ واحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ القصَّةِ الطَّرِيفةِ . فلَمَّا وَصَلَ « ابْنُ دَأْيَةَ » فى حديثِهِ إلى هٰذا الْحَدِّ ، صَمَتَ (سَكَتَ) قَليلًا لِيَسْتَرِيحَ . ثم اسْتَأْنَفَ (عادَ يتَكلَّمُ) ناعِبًا (مُصَوِّتًا) ، يَقُولُ : « مَرَّ عَلَى هٰذا الحادثِ — أَيُّها الْعَزِيزانِ — سِنُونَ عِدَّةٌ (سَنَواتٌ كثيرةٌ) ؛ فَقَوِىَ نَبْتُ البَلُّوطِ ، ولَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ شَجَرةً كبيرةً جَميلةً ، ذاتَ جِذْعٍ (ساقٍ) مَتِينٍ ، وَأَوْراقٍ كَثيفَةٍ ، ظِلالُها وارِفَةٌ (واسِعَةٌ) . وَصارَ الطِّفْلُ الصَّغيرُ الضَّعيفُ أُمًّا شَديدةَ القُوَى ، أَنْجَبَتْ (وَلَدَتْ أَبْناءَ نُجَباءَ) ؛ فصارَتْ لَها أُسْرَةٌ كبيرةُ العَدَدِ منْ شُجَيْراتِ البَلوطِ الصَّغيرة .

وَكانَتِ الأُمُّ البَلُّوطِيّةُ كَثيرةَ الحَنان (عظيمةَ الرَّحْمَةِ) ، شَديدةَ العطْفِ عَلَى أَبْنائِها ، تَبْسُطُ ذِراعَيْها عليهم ، لِتَحْمِيَهُمْ خَطَرَ العاصِفةِ إذا هَبَّتْ وَعَنُفَتْ (اشتَدّتْ) ، حَتّى لا يُصيبَهُمْ أَىُّ سُوءٍ .

وكانَتِ الشُّجَيْراتُ مُمْتَلِئَةً قُوَّةً وَصَلابةً . وَلا غَرْوَ (لا عَجَبَ) ، فقد كانت شديدةَ النَّهَمِ (كثيرةَ الْحِرْصِ عَلَى الأَكلِ) . وقد تَكاثَرَ عَدَدُها — عَلَى مَرِّ الأَيامِ — حتّى تَأَلَّفَ مِنْها أَجَمَةٌ مَمْلوءَةٌ بِشَجَرِ البَلوط الجميل . وَصارتِ الطُّيُورُ تَفِدُ (تَقْدَمُ) عليها وَتَجِيءُ إليها ، من جميع

أنحاء الجَوِّ — مِنَ الصَّباحِ إلى المَساء — وَتَبْهَجُ الغابَةَ (تَسُرُّها) بِأغاريدِها (أَغانيها) الجميلةِ ، وَأَصْواتِها العَذْبَةِ .

وفى ذاتِ يَوْمٍ — مِنْ أَيامِ شَهْرِ مايو — قالتِ البَلُّوطَةُ لأبنائها الشُّجَيْراتِ الصَّغيرةِ :

« لقَدْ حانَ وَقْتُ ازْدِهارِكُمْ (جاءَ زَمَنُ إشراقِ حُسْنِكُمْ) ونُمُوِّكُمْ ؛ فَأَقبِلوا عَلَى الغِذاءِ — فى نَهَمٍ — لِيَتِمَّ نَماؤُكُمْ ، وَتَكْثُرَ ثَمراتُكُمُ التى يَنْبُتُ — مِنْ بُذورِها — أَبناؤُكُمْ . »

ثم استأنَفَتِ البَلُّوطَةُ قائلةً :

« وافَرْحتاهُ إذا تَمَّتْ لِي هٰذهِ الأُمنيَّةُ ؛ فإِنِّى أُصْبِحُ — حينئذٍ — جَدَّةً ، بَعْد أن أصْبَحْتُ أُمًّا ! »

* * *

وَظَلَّتِ الأَجَمَةُ سَعيدَةً بِهٰذِهِ الأُسرةِ ، وَكانتْ شُجيْراتُ البَلُّوط دائمةَ الابتِهاجِ والمَرَحِ ، تَقْضِى أَكْثَرَ أوقاتِها فى أحاديثَ وأسمارٍ طَريفَةٍ ، وَتَهُزُّ رُءوسَها مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ؛ فَتُذْعَرُ (تَنفَزِّعُ) أفْراخُ

الطُّيورِ (أبناؤها الصَّغيرةُ) ، وَلا تَجْرُؤُ على أن تَنامَ بَيْنَ أغْصانِها ، فَتُضْطَرُّ إلى الرُّقاد فى أماكنَ أخرى .

١٠ — مصارعُ البلُّوط

ولٰكنَّ السُّرورَ لا يدومُ طويلًا فى هٰذا العالَمِ : عالمِ النَّباتِ جَميعاً . فما أَسرعَ وُفُودَ الحطَّابينَ — فى فَجْرِ الأيَّامِ المُتَقارِبَةِ — على الغابَةِ ، حيث يَذْعَرُونَ الطَّيرَ والدَّوابَّ ، وَيُنَغِّصُونَ (يُكَدِّرونَ) عليها صَفاءها ، وَيطْرُدُونَ نومَها الهادِئَ ؛ فتَهْرُبُ الطَّيرُ والسناجيبُ ، وهى تَنْدُبُ سُوءَ حظِّها ، وَتَرْتَجِفُ شُجَيْراتُ البلُّوط ، كلَّما سَمِعَتْ رَنينَ الْفُئُوسِ الثَّقيلَةِ فى الْجُذوع الصغيرة النَّاشِئَةِ .

ولا يَزالُ النَّاسُ يَحْتَطِبُونَ (يَقطَعُونَ الْحَطب) حتى يأْتِىَ الْمساء . ولقد لَقِيَتْ كثيرٌ من شُجيرات البَلُّوط مصارِعَها ، وانْطَرَحتْ على الأَرض مَيِّتةً لا حياةَ فيها .

فتَحْزَنُ أُمُّ البلُّوط لِهلاك بناتِها ، وتأْلَمُ — لِفراقهنَّ — أَشَدَّ الأَلَمِ . ثم لا يَلْبَثُ بَدْرُ السَّماءِ الجميلُ أن يَسْطَعَ فوقَ ذِرْوَةِ الْجَبلِ (قِمَّتِهِ



وأعلَى مكانٍ فيهِ) ؛ فتقولُ له الأُمُّ الحزينةُ :

« خبِّرْنى أيُّها البدرُ المُنيرُ . حدِّثنى أيُّها الصَّديقُ الكريمُ : لِماذا يَقتُلُ النَّاسُ أوْلادِيَ الأَعِزَّاءَ ؟ »

فلا تُتِمُّ قولَها ، حتى تعترضَ سَحابةٌ ضَوءَ القمرِ ؛ فلا تَسْمعُ البلُّوطَةُ — لِسُؤالها — ردًّا . ثمَّ لا تَلْبَثُ النُّجُومُ أَنْ تَظْهرَ فى السماءِ ، حيثُ تَتَلألأُ آلافٌ من المَصابيحِ السماوِيَّةِ الصغيرةِ البَديعةِ .

• • •

فتقولُ لها شَجَرَةُ البلُّوط مُستَفْسِرَةً :

« برَبِّكِ خبِّرِينى ، يا نُجُومَ السَّماءِ . برَبك لا تَكْتُمِى الحقيقةَ عَنِّى ، أيتها الصَّديقاتُ العزيزات . حدِّثينى : ما الَّذِى أَغْضَبَ النَّاسَ مِنِّى ، أيتها الكواكبُ اللَّامِعاتُ ؟ لِماذا اقتَحَمُوا عَلَيَّ غابَتِى ، وراحُوا يَعْتَدُونَ على أَهْلِى وعشيرَتى ؟ لماذا قتلُوا بناتِى ، أيتُها النُّجومُ المُؤْتَلِقات ؟ »

فَلا تُجيبُها الكواكِبُ ، ولا تَرُدُّ عَلَيها النُّجُومُ !

ولا تَزالُ شَجَرَةُ البلُّوط ساهِدَةً مُؤرَّقَةً (ساهِرَةً لا يَزُورُها النَّوْمُ) لِحُزْنها على أَبنائِها ، حَتَّى يطلُعَ الفَجْرُ ؛ فَيَنْتابُها المَرَضُ ، وَيُحاوِلُ

أَصْدِقاؤُها — مِنْ طُيُورِ الأجَمَةِ — أَنْ يُهَوِّنُوا عليها ما تُكابِدُهُ مِن أَلمٍ (ما تُقاسِيهِ من وجَع) ؛ فَلا يَجِدُون إلى ذٰلكما سبيلًا .

١١ — عَزاءُ الشُّحْرُور

فإذا اقتربَ زَمنُ الخريفِ اصْفارَّتْ أَوْراقُها ، وَتَساقَطَتْ — واحدةً إثْرَ أُخْرى — وَتَجَوَّفَ جِذْعُها (صارَ ساقُها فارِغًا) ، وأَيْقَنَ الجميعُ أَنَّ مَصْرَعها وشِيكٌ ، وأصْبَحُوا يترقَّبون موتَها يومًا بعدَ يَوْمٍ .

وكانت البلُّوطَةُ لا تَنِي (لا تُبْطِئُ) عن سؤالِ كلِّ مَن رأتهُ :

« لِماذا قَتَلَ النَّاسُ أوْلادى ؟ »

فى ذاتِ يَوْمٍ مَرَّ بها شُحْرُورٌ شَيْخٌ ، فلمَّا أَلْقتْ عليــهِ هٰذا السؤالَ — وقد أَلْقَتْهُ على غيره أكثرَ من مِائَةِ مَرَّةٍ — قال لَها :

« لَمْ يَقْتُلِ النَّاسُ أولادَكِ انْتِقامًا منك ، كما تَظُنِّينَ ؛ فليس بينَهم وَبَيْنَكِ تِرَةٌ (ثأرٌ) ولا عَداوَةٌ . إنَّما أهْلَكَ النَّاسُ أَبْناءكِ ، لأَنَّهُمْ فى حاجةٍ إليهم ؛ فَهُمْ يتدفَّئُونَ بأجسامِهم الْخَشَبيةِ ، ولا يَسْتَغْنُونَ عن حَطَبِهِمْ ، كما أَنَّهُمْ يَسْتَعِينُون بِقِشْرِهِمِ فى صُنع نِعالِهِمْ . وحَسْبُكِ

(يَكْفِيكِ) أنْ يكونَ أولادُكِ نافعينَ ؛ فَلَيْسَ أبهجَ للنَّفْسِ من أن تشعُرَ بأنَّها أدَّتْ قِسْطَهَا (قامَتْ بنصيبها) من خِدْمَةِ النَّاسِ ! »

فابتَهجت شجرةُ البلُّوط ، وسُرِّيَ عنهـــا (خَفَّ أَلَمُها) ، حِينَ سَمِعتْ كلامَ الشُّحْرُور ، وتعزَّتْ (تَصَبَّرَت) عن فَقْدِ بناتِها العزيزات.

ثم جاء الرَّبيعُ ، فأَخَذتْ شجرةُ البلُّوط زِينتَها ، واسْتَعادَتْ بَهْجَتَها .

ولم يَحُلَّ الخريفُ ، حتَّى أَصْبَحَتْ أغصانُها مُحَمَّلَةً بزهَراتٍ جَميلَةٍ بَرَّاقَةٍ . »

١٢ — العُشُّ الصَّغيرُ

وَهنا قالَتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » لِ« ابن دَأْيَةَ

« مَعْذِرةً — يا ابنَ دَأْيَةَ — إذا قَطَعْتُ عليك حديثَك الْمُمْتِعَ ؛ فقد ذكرتُ الآن شيئًا مُهِمًّا أُريدُ أن تُفَسِّرَهُ لى . »

فقال لها « العَقْعَقُ » : « سَلِي ما تَشائِينَ . »

فقالت « أُمُّ شَرْشَرَةَ » :

« لقدْ رأيتُ كُراتٍ حُمْرًا عَلَى ورقِ البلُّوط ؛ فلَمْ أَدْرِ : أَىُّ شَىْءٍ هىَ ؟

كانَ ذٰلكَ فى الصَّيف الْماضِي إبَّانَ (حِينَ) تغيُّبِ زَوْجى « أبى بَراقش » ؛ فَذَهبْتُ لزيارة إحْدى صديقاتى من العصافيرِ ، وَظَلِلْنا نمرَحُ ونلعبُ ممَّا نُعْبَةَ الِاستخفاء — بين أغصانِ شجرةِ البلُّوط — فلمَحْتُ الكُراتِ الْحُمْرَ . وقدْ أعجبنى لوْنُها البديعُ الْقانِى (الشديدُ الْحُمْرَةِ) ؛ فقلتُ فى نَفْسى : لعلّها « كَرَزٌ » . ثم أسرَعْتُ إليها ، فنقرتُها ، وهمَمْتُ بأكلِها . وما تَذَوَّقتُها حتّى وَجدْتُ لها طَعْمًا مُرًّا لَذَّاعًا ، كادَ — لِمَرارَتِهِ ولَذْعِه — يُحْرِقُ لِسانى ، وخُيِّلَ إلَيَّ أنَّنى تَذَوَّقْتُ سَمًّا قاتِلًا ! » فقالَ « ابْنُ دَأْيَةَ » ، وهُوَ يَهُزُّ رَأْسَهُ ساخِرًا :

« ما أعْجَبَ شَرَهَكِ ، وأشدَّ بلاهَتَكِ ، ياابنَةَ أخى الطائشَةَ ! كيف دارَ بِخَلَدِكِ (كيف مَرَّ بخاطِركِ) أنها « كَرَزٌ » ؟ وهلْ يَنبُتُ الكرَزُ فى شَجرِ البلُّوطِ ؟ فكَيْفَ تَحْكُمينَ ، ياعَزيزتى ؟

إنَّ هٰذهِ الكُرَةَ ليْسَتْ إلا عُشًّا صَغيرًا . »

فصاحَتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » مَذهوشَةً :

« آه ! كلَّا — ياعَمِّى — فَليْسَ فى الإمكانِ أنْ تكونَ عُشًّا ! »

فقالَ لها « العَقْعَقُ » : « بل كانَتْ عُشًّا ، بِلا رَيْبٍ . وكانَ يرْقدُ

فيها طِفلٌ صغيرٌ . ولو أنَّكِ أنعمْتِ النَّظَرَ ، لَرَأَيْتِ — فى ذٰلكِ العُشِّ الصَّغيرِ — دُودَةً مِنْ تلكِ الديدانِ التى تَبْحَثينَ عنها مُجِدَّةً جاهِدَةً . »

فقالتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » : « وا أَسَفاهُ على ضياعِ تلكَ الفُرْصةِ الثمينةِ ! لقــد فَوَّتُّها على نَفْسى بِجَهْلِى وغَباوَتى . ولَيْتَنى عَرَفْتُها ، إِذَنْ لَنَعِمْتُ بذٰلكَ الطَّعامِ الفاخِرِ اللذيذِ ! »

ثم اسْتأْنَفَ « المَقْمَقُ » حَديثَهُ قائلًا :

« إِنِّى مُحَدِّثُكِ — يا أُمَّ شَرْشَرَةَ — عَنْ فائِدَةِ هٰذهِ الـكُراتِ التى يُسَمُّونَها اسمًا نَسِيتُهُ . . . وا أَسَفاهُ يا عزيزَتى ، فإِنِّى أَجِدُنى قد فقدْتُ الذَّاكِرَةَ بلا رَيْبٍ ! »

١٣ — قِصَّةُ « صادقٍ »

فهمَسَ « أبو براقِشَ » فى أُذُنِ « المقْمَقِ » :

« صَهٍ ، أَيها العمُّ الـكَريمُ . حَذارِ أَنْ تتكلَّمَ ؛ فإِنِّى أَرَى شَخصًا يَمُرُّ فى الطَّرِيقِ ، وهُوَ — فيما يَلُوحُ لِى — شَيْخٌ مُقَوَّسُ الظَّهرِ ، يَحملُ عَلَى ظَهْرِه قفصًا . »

فقالَ «الْعَقْعَقُ»، وَقد عَرَفهُ من سَمْتِه (هَيئته) وَمِشْيَتِه:

«أَلا تَعرِفانِ هٰذا الشَّيْخَ؟ كَلَّا! ما أَظُنُّكما تَعرفانِه؛ فإنكما لا تَزالانِ صَغيرَيْنِ. لقَدْ كانَ هٰذا الشيخُ الهرِمُ من أَصْدقاءِ «جَبَّارَةِ الغابةِ»، مُنذُ زَمنٍ طويلٍ.

وقدْ عرَفتُ أنَّ اسْمَهُ «صادِقٌ». وكانَ يَخْتلفُ إلى «جَبَّارَةِ الغابةِ» فى زمنِ طفولتِهِ، ويَلْهُو – ما شاءَ أن يَلْهُوَ – فى أجَمَتِنا. ثمَّ وَقعَ لهُ حادِثٌ مُفَزِّعٌ مُؤْلِمٌ؛ فلم أرهُ منذُ هٰذَا الْحِينِ...

إنَّها قصَّةٌ قديمَةُ العهْدِ.»

فَقَالَ الشُّرْشورانِ:

«ليتَكَ تَقُصُّها علينا – يا أبا العقْعَقِ – فإننا شديدا الشَّغَفِ بِسَماعِ القِصَصِ.»

فقال «العَقعقُ»:

«لَكُما ما تُريدانِ يا ولَدَىَّ، وَإنِّى قاصٌّ عليكُما حَديثهُ الْمُحْزِنَ.

لَقدْ تسلَّقَ هٰذا الشيْخُ – وَكانَ حينئذٍ صَبِيًّا – جِذْعَ الدَّوْحَةِ الْجَبَّارةِ الهائلَةِ حتى بلغَ قِمَّتَها.

ثُمَّ جلَسَ على أحدِ أغْصانها العاليةِ ، وَضَمَّ ساقًا إلى ساقٍ ، وَظَلَّ يَرْتَجِحُ (يَميلُ يمينًا وَيسارًا ، كأنهُ فى أُرْجُوحَةٍ) مَسرورًا ، وَيصيحُ مُبتهجًا :

« أنتَ جَوادِى وَأنا الْحادِى
لَيسَ لِمِثْلى مِنْ أنْدادِ
غَيْرُ شَقيقِى عبدِ الهادِى
ما أنْجَبَنا فى الأَوْلادِ
ما أَمْجَدَنا فى الأَمجادِ

* * *

كَمْ أرْغَمْنا مِنْ حُسَّادِ
وترَأَّسْنا حَشْدَ النَّادِى
أنتَ جَوادِى وَأنا الحادِى
حادٍ بادٍ فى بغدادِ . »

وَظلَّ يُغنِّى هٰذه الأُغْنِيَّةَ الجميلةَ ، وَلم يدْرِ ما يَخْبَؤُهُ لهُ القَدَرُ .
ثمَّ كُسِرَ الْغُصْنُ — فَجْأَةً — وَهَوَى (سَقَط) « صادقٌ » إلى الأرض ،



وَأصبحَ فى حالٍ يُرْثَى لها (تَسْتدعِى الشفَقةَ) .

وَقدْ حَزِنتْ طُيورُ الْغابةِ لمُصابهِ ، وَتألَّمتْ لِألمهِ ؛ لأَنها كانتْ تُحبُه وَتأْنَسُ بهِ . وما أجدرَه بحبها ؛ فقدْ كانَ غُلاماً طيِّبَ القلبِ ، لا يَدَّخِرُ وُسْعاً فى إِسْعادِ الطُّيورِ وَبِرِّها ، وَتقديمِ فُتاتِ الْخُبْزِ إليْها فى الشِّتاء ، وَلم يكُنْ يَمَسُّ أوْكارَها (أَعْشاشَها) بِسوءٍ .

ثم عادَ الصَّبِيُّ التَّاعِسُ إلى بَيْتهِ أعْرَجَ ، لا يَمْشِى إلَّا بِشقِّ النَّفْسِ (بِتَعَبِها وَمَشَقَّتِها) ، وَلَمْ يَعُدْ إلى شجرَة البلُّوطِ فى اليومِ التَّالى .

فَحَزِنَتِ الطَّيرُ ، وَاستَوْحَشَتْ لِغَيْبتِهِ ، وَكَفَّتْ عَنِ التَّغْرِيدِ أُسْبوعاً كامِلًا .

وكانَتِ الأَطْيارُ تُخْرِجُ رُءوسَها مِنْ بَيْنِ أجْنِحَتِها فى الْمَساءِ وتَنْدُبُهُ ، مُتَحَسِّرَةً عليهِ ؛ فَتهَدَّتُها أُمَّاتُها ، وتعزِّيها فى مُصابِها بِفَقْدِهِ .

ثم جاء بعدَ أيامٍ ، وَقَدْ شُفِيَ — بِفَضْلِ عِنايَةِ أُمِّهِ — واسْتَعادَ نشاطَهُ وَصِحَّتَهُ . فابْتهجَتِ الطيورُ بِمَقْدَمِهِ (فَرِحَتْ بِقُدُومِهِ) ، وَغَرَّدَت (غَنَّتْ) ، وحَمِدَتِ الله على شِفائهِ . »

١٤ — آلامُ الشيخوخةِ

ثم صَمتَ (سَكَتَ) « العَقْعَقُ » . وَظَلّتْ « أُمُّ شَرْشَرَةَ » تَنقُرُ صَدْرَها بِمِنقارِها . أَمّا زَوْجُها ، فقد تَرَقْرَقَتْ دَمْعَةٌ فى عَيْنِهِ — مِنْ شِدَّةِ التَّأَثُّرِ — وَظَلَّ يَنْظُرُ إلى الشَّيْخِ « صادِقٍ » حتى اخْتَفَى عَنْ عَيْنَيْهِ .

ثم قالَ « العَقْعَقُ » :

« واحَسْرتاهُ ! لَمْ يَبْقَ مِنْ قِصَّةِ هٰذهِ الْجَبّارَةِ إلا الْحَدِيثُ عَنْ ذِكْرَياتها الْمُؤْلِمَةِ فى أيامِها الأخيرةِ . فقد مَرَّتِ السِّنونَ الْمُتَعاقِبَةُ (السنواتُ الْمُتَتابِعةُ) على الشجَرةِ الْهَرِمَةِ ، حتَّى أَجْهَدَتْها الشيخوخَةُ ، وأَصْبَحَتْ أَكْبَرَ شَجراتِ الأَجَمَةِ سِنًّا .

وَقَدْ كانَ جَدِّى ذَكِيًّا ، عارِفًا بالتـاريخِ ، وَهُوَ يُؤَكِّدُ لَنا أَنَّ عُمْرَ شَجَرِ البلُّوطِ يَبْلغُ ثَلٰثمِائَةِ شِتاءٍ

أَمَّا أنا ، فلا أَسْتَطيعُ أن أُمَثِّلَ لِنَفْسِى (أَتَصَوَّرَ) مِثْلَ هٰذا العُمْرِ الطَّويلِ ؛ لِأنَّ إِدْراكى خَفيفٌ ، لا يَسْتَطيعُ أَنْ يتخيَّلَهُ .

وَمَهما يَكُنْ فى دُنْيانا — من أمْرٍ — فإنَّ لِكلِّ بِدايةٍ نِهايةً

وَإِنَّ لِكُلِّ عُمْرٍ – مَهْمَا يَطُلْ – غَايَةً ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مَوْلُودٍ مِنَ الكائناتِ أَنْ يَمُوتَ . فلا عجبَ إذا أَدْرَكَتِ الشيخوخَةُ جَبَّارَةَ الغابةِ ، فأضْجَرَتْها (مَلأَتْ نَفْسَها غمًّا) ؛ لِأَنَّ جميعَ أَصْدِقائها – مِنْ عَهْدِ الطُّفولَةِ – قد ماتُوا مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ، وَلَيْسَ آلَمَ للنَّفْسِ مِنْ فَقْدِ أصدِقاءِ الطُّفولَةِ ، وَرُفقاءِ الشَّبابِ !

١٥ – النَّقَّارُ الأخضرُ

وَلَمَّا جاء شَهْرُ نوفمبر ، واقْتَمَّتِ السماءُ (اسْوَدَّتْ وَأَظْلَمَتْ من الغُيوم) ، وَبَرَدَ الجَوُّ ، أُتِيحَ (تَهَيَّأَ) لِهٰذِهِ الشَّجرةِ العَجوزِ رَفيقٌ بارٌّ مُخْلِصٌ ؛ فظلَّ لها سميرًا ومُؤْنِسًا طُولَ حياتِها .

وكانتْ شجرةُ البَلُّوط العَجوزُ – حينئذٍ – تتأهَّبُ لِرُقادها (تَسْتَعِدُّ لِنَوْمِها) السَّنوىِّ الطَّويلِ الذى يَسْتَغْرِقُ الشَّهْرَ كلَّهُ . وَلٰكِنَّ ضَجَّةً مُدَوِّيَةً زَعْزَعَتْها مِنْ فَرْعِها إلى أَصْلِها (مِنْ أَعْلاها إلى أَسْفَلِها) . ولَمْ تَكُنِ الضجَّةُ العَنيفةُ إلَّا طَلَقًا ناريًّا ، خَرَجَ مِنْ بُنْدُقِيَّةِ صَيَّادٍ يَجُوسُ (يَمْشى) خِلالَ الأَجَمةِ ، وَخَلْفَهُ كَلْبُهُ .

وسَمِعَتْ شَجرةُ البلُّوط — حِينئذٍ — صَوْتَ صَفِيرٍ مُتَقَطِّعٍ يَنبَعِثُ مِنْ نَقّارٍ أخْضرَ ، يرْتَعِدُ فزَعًا ، وَيُوشكُ أنْ يَهْلِكَ مِنَ الذُّعْرِ ؛ فقد كان النَّقّارُ الأخْضَرُ يَئِنُّ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، وَيقولُ :



« لقَدْ هَلَكْتُ ، فما حِيلتى ؟ وَمَنْ لِى بالنَّجاةِ مِنْ مُطارَدَةِ الصَّيَّادِ ؟ وفى أىِّ مكانٍ أسْتَخْفِى ؟ »

فقالتْ لَهُ « جَبَّارةُ الغابَةِ » العجوزُ :

« إلَىَّ يا صديقِىَ النَّقَّارَ الأخْضرَ ، هَلُمَّ فانْزَوِ فى هٰذا الثَّقْبِ الذى تَراهُ بَيْنَ غُصْنَىَّ الكَبيرَيْنِ . »

فأَسْرَعَ النَّقارُ الأخْضَرُ إلى الشَّجرَةِ ، وخبأَ نَفْسَهُ فى الْمَخْبَإِ الأمين .

ومرَّ به الصَّيادُ وكلبُهُ ، دون أنِ يفْطُنا إلى مكانه . فلم ينْسَ النَّقارُ الأَخضرُ — لشجرةِ البلُّوط — هٰذه اليَدَ ، وشكَر لَهـا أَن أنقذتْ حَياتَهُ ، وفكَّر طَويلًا فى مكافأَتِها عَلَى صَنيعِها . ثم هَداهُ تفكيرُه إلى الْفَحْص عن جذْعها ؛ فرأى كثيرًا مِنَ الْحَشرات قـد تَجَمَّعتْ حوْلَ الْجِذعِ تأكلُه ، حتّى نَخْرتْهُ (جَعلَتْ فِيهِ ثُقُوبًا وشُقوقًا) . فلمَّا رأى جِذْعَها قد نَخِرَ (بَلِيَ وَتفتَّتَ) وفَسَد ، آلَى (حَلَف) عَلَى نفسهِ أنْ يُبيدَها (يُهلِكَها) جَميعًا . وظلَّ يَلْتَهِمُ الحشراتِ ، دائبًا (مُواظِبًا) عَلَى مُطارَدتِها فى كلِّ يومٍ ، مِن الصَّباح إلى الْمَساء .

وكانتْ أسرابُ الحشراتِ (جَماعاتُها) كلَّما رأَتهُ ، هَمَّتْ بالْفِرارِ . ولٰكنَّهُ كان يَمُدُّ لِسانَهُ إليها ، فَيَلْتَقِطُها — من فَوْره — ويَرى فى هٰذِه الحشراتِ السَّمينة أشهَى غذاءٍ لهُ .

ولمَّا حَلَّ الشِّتاء ، لم يَشَإِ النَّقَّارُ الأخضرُ أن يتركَ صديقَتهُ الْعزيزةَ ؛ فَظَلَّ فى مَخْبَئِهِ بين أغصانها ، صابرًا عَلَى بَرْدِ الشِّتاء القارِسِ ، وقد

ذهَب ريشُهُ ، ولَمْ يستطع الخروجَ طُولَ أيّامِ هٰذا الفصل ؛ فكانَ يَقضِي ساعاتٍ طويلةً يتحدَّثُ فيها إلى صديقَتِهِ « جبّارةِ الغابَةِ » عن جَمال أيَّام الشَّبابِ . »

١٦ — خاتمةُ الحديثِ

ثُمَّ صَمَتَ « المَقْعقُ » عَنِ الكلامِ ، ولَبِثَ الشُّرْشورانِ صامِتَيْنِ . وظَلَّ ثَلاثَتُهُمْ يُفَكِّرونَ في قِصَّةِ هٰذهِ الشَّجرةِ العَجُوز ، التي لَقِيَتْ حَتْفَها (ماتَتْ) في ذٰلكَ اليَوْمِ ، وارْتَمتْ عَلَى الحَشائشِ المُخْضَرَّةِ .

ثُمَّ قالتْ « أُمُّ شَرْشرَةَ » : « تُرَى : كيْفَ كانَتْ خاتِمةُ النَّقّارِ الأخْضَرِ ؟ »

فقالَ « أبو براقِشَ » :

« لَعَلَّ العاصِفَةَ قدْ أَهْلَكَتْهما مَعًا ! »

فقالَ « ابْنُ دَأْيَةَ » : « لَسْتُ أَسْتَبْعِدُ ذٰلِكُما ، يا وَلديَّ العزيزَيْنِ ! فلا تَحْزَنا عليْهما ، فَكُلُّنا لِلفَناء . »

مكتبة الكيلانى

مَجْمُوعاتُها : تُسايِرُ التِّلْميذَ فِي نَحْوِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَدِيعَةَ الإِخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الأَطْفالِ إِلَى خِتامِ التَّعْلِيمِ الثَّانَوِيِّ . ثُمَّ تُسْلِمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الكِيلانِيِّ لِلشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الخُلُقَ ، وَتُرَبِّي الذِّهْنَ ، وَتُعَلِّمُ الأَدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ القارِئَ وَيُمْتِعُهُ ، وَيُحَبِّبُ الكِتابَ إِلَيْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّي مَلَكَةَ التَّعْبِيرِ ، وَتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصِيحِ البَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْيِيدِها وُزَراءُ المَعارِفِ وَزُعَماءُ التَّعْلِيمِ وَقادَةُ الرَّأْيِ فِى الشَّرْقِ ، وَكِبارُ المُسْتَشْرِقِينَ وَأَعْلامُ التَّرْبِيَةِ فِى الغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بِتَنْشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعاتُها العَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِها الجِيلُ الجَدِيدُ فِى بِلادِ العُرُوبَةِ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْها بَيْتٌ عَرَبِيٌّ .

تُرْجِمَتْ إِلَى أَكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ اللُّغاتِ الغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إِذا عَرَفَها التِّلْمِيذُ ، سَعَى إِلَيْها بِلا تَرْغِيبٍ وَلا تَرْهِيبٍ

كانَتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ لِلآباءِ ، وَهِيَ اليَوْمَ أَشْهَى غِذاءٍ ثَقافِيٍّ لِلأَبْناءِ.



قصص فكاهية

١ عفارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ المتدى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ « فى بلاد العمالقة .
٣ « فى الجزيرة الطيار
٤ « فى جزيرة الجياد
٥ روبنسن كروزو .

قصص عرب

١ حى بن يقظان . ٢ ابن

قصص تمث

١ الملك النجار .



